

"أيها الناس اسمعوا قولي، ولا تعجلوا حتى أعظمكم بما هو حق لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة. ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون، إن وليي الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين، فلما سمع النساء هذا منه صحن وبكين وارتفعت أصواتهنّ، فأرسل إليهنّ أخاه العباس وابنه علياً الأكبر وقال لهما: «سكتاهنّ فلعمري ليكثرن بكأوهنّ»، ولما سكتنّ، حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمّد، وعلي الملائكة والأنبياء، وقال في ذلك ما لا يحصى ذكره، ولم يُسمع متكلم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقة، ثم قال:

«عباد الله، اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر، فإنّ الدنيا لو بقيت على أحد، أو بقي عليها أحد لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء وأولى بالرضا وأرضى بالقضاء، غير أنّ الله خلق الدنيا للفناء، فجيدها بالٍ ونعيمها مضمحل وسرورها مكفهر، والمنزل تلة والدار قلعة، فتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون. أيها الناس إنّ الله تعالى خلق الدنيا، فجعلها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرته والشقي من فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا، فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها. وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نعمته، فنعّم الربّ ربّنا، وبئس العبيد أنتم؛ أقررتم بالطاعة وأمنتكم بالرسول محمّد صلى الله عليه وآله، ثمّ إنكم زحفتم إلى ذريته وعترتة تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم، فنتباً لكم ولما تريدون. إنّ الله وإنا إليه راجعون هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين.

أيها الناس أنسبوني من أنا ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوا وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألسنتُ ابن بنت نبيكم وابن وصيّه وابن عمّه وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟ أو ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الطيّار عمّي، أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدان شباب أهل الجنّة؟ فإنّ صدقتموني بما أقول وهو الحقّ - والله ما تعمدتُ الكذب منذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، ويضرب به من اختلقه - وإنّ كذبتموني، فإنّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبرونكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ فقال الشمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول، فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنّي أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك، ثمّ قال الحسين عليه السلام: فإنّ كنتم في شكّ من هذا القول، أفنشكّون أنّي ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم أطلبونني بقتيل منكم قتلته؟! أو مال لكم استهلاكته؟! أو بقصاص جراحة؟! فأخذوا لا يكلمونه!

فنادى: يا شبت بن ربي، ويا حجار بن أاجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحارث ألم تكتبوا إليّ أنّ أقدم قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب، وإنّما تقدم على جندك مجنّدة؟

فقالوا: لم نفعل، قال عليه السلام: سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم. ثم قال: أيها الناس، إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمن من الأرض. فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروا إلا ما تحبّ ولن يصل إليك منهم مكروه، فقال الحسين عليه السلام: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيك بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد، عباد الله إنّي عدتُ برّبي وربكم أن ترجمون، أعود برّبي وربكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب."